البُعد الصّوفي في "قصيدة ما في الجبّة غير البحر" لفاتح علاق أنموذجا

the sufi dimension in the poem "there is no meal other than the sea" by by fateh allaq as a model

فتحة كريمة*

د. عماد بن عامر♣

تاريخ الإرسال: 2021/12/24	تاريخ القبول: 2022/11/27	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

يتناول مقالنا الشّعر الجزائري المعاصر، نظرا لما يحتويه من قيم فنيّة وأدبيّة جعلت من الخطاب الشّعري خطابا عميقا، يحمل الكثير من الدّلالات والقراءات المتعدّدة، فقد أصبح الشّاعر المعاصر في بحث دائم عن مرجعيات وأفكار جديدة تساهم في تطوّر نصّه الشعري، والشاعر "فاتح علاق" أحد الشّعراء الذين تأثروا بالتّجربة الصّوفية فأتت معظم قصائده مشحونة بدلالات عميقة، تعبّر عن الواقع الأليم الذي شهدته البلاد و قصيدته "ما في الجبة غير البحر" تؤسس لذلك .

ولعل تأثره بالتجربة الصوفية القديمة ومحاولته خلق نص شعري جديد قائم على التّمازج بين التّجربة الصّوفية والتّجربة الشّعرية جعل نصّه الشّعري منفتحا ومتطوّرا.

الكلمات المفتاحية: كلمة، الصّوفية، الشّعر، الرّمز، فاتح علاق.

Abstract:

Our article deals with contemporary Algerian poetry, given the artistic and literary values it contains that made the poetic discourse a profound one, bearing many connotations and multiple readings. The poets who were affected by the Sufi experience, so most of his poems came loaded with deep connotations, expressing the painful reality that the country witnessed, and his poem "There is nothing in the robe but the sea" establishes that.

*جامعة البليدة2، Karimafatha@gmail.com

♣جامعة البليدة2، aimad.ben@gmail.com

Perhaps his influence on the old Sufi experience and his attempt to create a new poetic text based on a mixture of Sufi and poetic experience made his poetic text open and developed.

Key words:*Sufism, poetry, symbol, FatihAllaq.*

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

المؤلف المرسل: فتحة كريمة، ek.fatha@univ-blida2 .dz

1. مقدمة:

لقد تنوعت التجربة الشعرية واختلفت مضامينها وأغراضها، ولعل الشعر الصوفي من أهم مميزاتها، نظرا لأصالته وعراقته وصدق قضاياه الفنية والموضوعية، فالصوفية نزعة فكرية لم تستطع أي نزعة على امتداد تاريخ الفكر الإسلامي أن تكتسح العالم العربي وبلاد المغرب كهذه الأخيرة، ولقد شكل الاتجاه الصوفي أحد أقوى الاتجاهات الشعرية في القرن السابع هجري حتى يومنا هذا.

فلا شك أن الفكر الصوفي متجذر في الثقافة الجزائرية، ومتأصل في تراثها، فقد خرجت الزوايا والكتاتيب الجزائرية علماء ربانيين ومريدين يحتذى بهم في العلوم الدينية والدنيوية.

إن الأوضاع التي كانت تعيشها الأمة العربية ـ والأمة الجزائرية خاصة. جعلت الشعراء يبحثون عن متنفس جديد، جراء ذلك الواقع العصيب، فقد وجدوا في الصوفية راحة وسكينة، تجاوزوا بها واقعهم، وارتقوا بها إلى عالم الإشراق والسمو، بعدين بذلك عن ملذات الحياة وزخرف الدنيا، طامعين في نيل رضا الله، والوصول إلى طريق الحق واليقين.

والمتأمل في الشعر الجزائري المعاصر، يدرك روعة أساليبه وجمال لغته وتركيبة نظمه، وعمق عباراته ودلالة فكرته، فالنص الذي بين أيدينا هو نص لم يعد يعتمد على

الفهم المباشر وتلقين الأفكار وإنما نص زواج بين التجربة الشعرية والتجربة الصوفية وأنتج لنا نصا جديدا، كان ميدانا للحداثة العربية.

وهنا تجدر الإشارة إلى التحدث عن لغة الشاعر الجزائري المعاصر، تلك اللغة المشحونة بالإيحاءات، البعيدة عن المألوف والمباشرة، وهي كذلك لغة رمزية تحمل دلالات كثيفة، حيث أن القارئ العادي لا يستوعبها جيدا إلا إذا كان عارفا بعلم التصوف ومصطلحاته، وهذا ما نستشفه جيدا في قصائد الشاعر فاتح علاق حيث أن معظم قصائده لا نجدها تخلوا من المصطلحات والدلالات الصوفية العميقة.

ونحن في خضم الحديث عن الشعر والتصوف، تواجهنا الكثير الإشكاليات التالية:

- إلى أي مدى استطاع الشاعر الجزائري المعاصر أن يتمثل هذه الظاهرة في شعره؟، وما هي أهم الرموز الصّوفية التي اعتمد عليها في شعره؟.

- وما هي أهم الأبعاد والدلالات التي حملتها قصيدة "ما في الجبة غير البحر"للشاعر الجزائري فاتح علاق؟.

حيث سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات لإزالة الضبابية عن بعض الأمور المتلبسة للقارئ.

2. النّص الصّوفي:

لابد أن نشير إلى أن النّص الصّوفي ليس بالضّرورة هو نصّ شعري، وإنما هناك قضية تأثر وتأثير، فالشاعر نتيجة تلك الظروف المعيشية القاهرة والإحساس بالقلق والخوف والجهل والضياع وكل الظروف السيئة لازمت الإنسان بصفة عامة، فقد جعلته هذه الأوضاع في بحث دائم نحو التغيير والبحث عن متنفس جديد يخلصه من تلك الأزمة التي صاحبته، وبالرغم من تلك الفوارق في مصادر التجربة الصوفية

والفنية، "وكذلك في مستهدف النّصين، نجد أن النص الأدبي بحاجة إلى التعبير الصوفي لأنه طالما استنفد طاقاته في الطروحات النفسية والاجتماعية والإيديولوجية"[1] كما هو متعارف عليها عند الجميع، فهي مرجعيات ثابتة منذ مر السنين، ولجوء الشاعر إلى توظيف الصوفية بكل فنونها في شعره، إنما هو رغبة منه في التمرد عن كل ما هو ثابت، وكل ما هو محدود إلى اللا محدود، وفي الحديث عن التصوف كان لنا أن نشير إلى مفهوم التصوف، فالتصوف حسب الموسوعة الفلسفية العربية هو "فلسفة حياة تهدف إلى الترقي بالنفس أخلاقيا وتتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقا لا عقلا، وثمرتها السعادة الروحية ويصعب التعبير عن حقائقها بألفاظ اللغة العادية"[2].

وإلى جانب ذلك نجد رأي آخر حول التصوف لزكي مبارك حيين قال:"إن كان في العالم قصيدة إنسانية خالدة فهي التصوف، هو وحده الأنشودة الباقية يوم تبيد الأناشيد، ولو فنيت الدنيا دفعة واحدة وبقي إنسان واحد يفتش عما حقّ فيها من الكلمات لما وجد أصدق من كلمة الصوفية"[3].

إذن فالتصوف يكاد يتفق عليه الجميع أنه خلق وتخلق بعواطف روحية وفلسفية تهذب النفس وتطهر العقول البشرية من كل النقائص وتجعل الإنسان يعيش في فيوضات روحية عظيمة، وبذلك تسمو روحه إلى إدراك كل ما هو غيبي و غير معلوم.

3. الصّوفية تجربة في الكتابة الشّعرية:

منذ القديم عُرفت الصّوفية بأنّها حركة ارتبطت بالدّين فحسب، ولكن في الحقيقة الأمر "لغة الخطاب الصّوفي تختلف عن لغة الخطاب الديني لأنها تقوم على رؤية خاصة للكون والمكون، وتمثل موقفا خاصا من الخالق والمخلوقات"[4]، فالتجربة الصوفية أسست لميلاد ثورة شعرية جديدة هي ركيزتها الأساسية، فهي لغة تخلصت من

اللغة العادية إلى لغة التجاوز والتخطي، فتجاوزت كل ما هو مألوف في نظرنا واعتقاداتنا إلى عالم الدهشة والاستغراب واللامحدود.

وقد استطاعت التجربة الصوفية أن تؤثر على العقل والفكر فكانت تجربة في الكتابة أيضا حيث يشير أدونيس إلى ذلك بقوله " فلقد استخدم الصوفيون في كلامهم على الله والوجود والإنسان، الفن، الشكل، الأسلوب، الرمز، المجاز، الصورة، الوزن، والقافية، والقارئ يتذوق تجاربهم ويستشف أبعادها عبر فنيتها، وهي مستعصية على القارئ الذي يدخل إليها معتمدا على ظاهرها اللفظي"[5].

إذن فلغة الصّوفية هي لغة الرموز والإشارات يصعب فهمها على القراء العاديين إذ لا تفهم إلا بالعقل الباطن وخباياه و يشترط في متذوقيها أن يكون عارفا وعالما وملما بألفاظها ومعانيها وها من أجل الغوص في خباياها، فهي لغة التجاوز و التخطي، وبهذا يكون أدونيس قد حدد لنا الفرق الجوهري بين اللغة العادية واللغة الصوفية.

إضافة إلى ذلك فهي لغة تعتمد على الإشارة والرمز "وهذا يعني أن اللغة الصوفية هي تحديدا لغة شعرية، وأن شعرية هذه اللغة تتمثل في أن كل شيء فيها يبدو رمزا، كل شيء فيها هو ذاته وشيء آخر"[6]، فالرمز الصوفي يعتبر منبعا غنيا بالدلالات الفنية والإنسانية، فالصوفي يجد لذته وغمرته الإبداعية في توظيفه لعنصر الرمز في شعره، واللذة الأسمى تتمثل في كتاباته المليئة بالخفي و الغامض من الأشياء، ومحاولة القارئ فك تلك الشفرات الصعبة وإدراك أسرار المجهول عبر عالم السالكين والمريدين، في جو مليء بالدهشة والاستغراب.

ولهذا "تُعدّ قصّة الرّمز في أشعار المتصوّفة قضية تتعلق بأساليب الشّعراء وطرائق التّعبير عندهم وتعد خاصية بارزة في أشعارهم"[7] إذن فالرّمز أحد الخصائص الفنّية التي ميزت الشعر الجزائري المعاصر ومن أهم الرموز الصوفية رمز المرأة ورمز الخمرة ورمز الرحلة.....الخ.

4. البُعد الصُّوفي ودلالته في قصيدة "ما في الجبّة غير البحر"

تشكل قصيدة "ما في الجبّة غير البحر" للشّاعر الجزائري فاتح علاق[8] نموذجا من الخطاب الصّوفي داخل منظومة تجربته الشّعرية ومطلعها :

لَيْسَ في البَحْرِ مِنْ أَحَدٍ

غَيْرَ جُبَّتِه وَهَوَاهُ،

غَيرَ نَظْرَتُه الهَائِمَهْ

فِي سَمَاءِ الإِلَه

مَرَرْتُ بَقَرْبِه لَمْ يَرَنِي،

لَمْ يُعَانِقْ هُمُومِي،

فَعُدْتُ إِلَىَ شَاطِئ نَائِمٍ[9]

للوهلة الأولى عند قراءتنا لهذه القصيدة يشدّ انتباهنا عنوانها، لما يحويه في ذاته من دلالات صوفية، فعنوان القصيدة هو بمثابة البوّابة الأولى التي يحط فيها القارئ رحاله، بحثا عن أغوار ومعاني القصيدة، ونحن في دراستنا لهذه القصيدة يظهر لنا تأثر فاتح علاق بالموروث الصوفي وعلاقته الوطيدة بالصوفية، فعنوان القصيدة يحيلنا مباشرة إلى قصة ابن منصور الحلاج أحد كبار المتصوفة الذين كان لهم دور كبير في النهوض بتيّار الصوفية، والشاعر فاتح علاق هو سليل الشعراء الآخرين في استحضار الشخصيات الصوفية فمثلا شخصيّة "النفري" و"ابن عربي و"رابعة العدويّة" و"ياقوت العرش" كلها شخصيّات تراثية صوفيّة تحمل الكثير من الإيحاءات والمعاني وظفها الشّاعر المعاصر رغبة منه في التستر وعدم البوح قد تقاسم الشعراء المعاصرين مع الحلاج وابن عربي... وغيرهم نفس التجربة، وقد سعى كل واحد من هما إلى الخلاص

من واقعه المرير الذي طبع حياته ونتاجاتهم الإبداعية تكشف ذلك، إضافة إلى هذا فإن توظيف هاته الشخصيّات قد أمّد الشّعراء بالطّاقة والحيوية وبالتالي جاءت نصوصهم عميقة جدا كونها نقلت لغتهم من لغة العالم المحسوس إلى لغة الباطن الخفي.

وفي هذا المقام لابد أن نستدعي قصة الحلاج وعلاقتها بعنوان قصيدة "ما في الجبة غير البحر"، وهو الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي البغدادي وهو صوفي سني ".[10]

ولد منتصف القرن الثالث هجري ونشأ بالعراق وقتل سنة ثلاثمائة وتسعة وهجرية نظرا لمواقفه وآرائه الجريئة في التصوّف، فعن سفيان بن عينه أنه قال: "دخل على الحلاج باب الحلول والاتحاد فصار من أهل الانحلال "، وما يشير على أنه كان متبني هذا الفكر قوله ما يلي:

حَلِيَتْ رُوحُكَ فِي رُوحِي كَمَا يَحِل العَنبْر بالمسْكِ العَتِيقِ

فإذا أَمَسَكَ شَيْء مَسَنِي فإذَا أنْتَ أَنَا لاَ نَفْتَرِق

وقوله أيضا:

مُزِجَتْ رُوحُكَ فِي رُوحِي كَمَا تُمْزَجُ الخَمْرُ بِالمَاءِ الزلال

فإذَا مَسَكَ شَيْء مَسَنِي فإذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُل حَالٍ[11]

من خلال هذه الأبيات نلمس جيدا فكرة الحلول والاتحاد[12]، و قد انبثقت هذه الفكر من عقيدة الهندوس وما يسمى عندهم بعقيدة التناسخ والتي تعني تكرار الولادة والوفاة أو تجوال الروح التي تقوم على أساس فكرة العقاب للذين لم يستطيعوا أن يندمجوا في "الكل" الذي الإله "براهما" في العقيدة البرهمية لارتباطها بتصور أن الوجود واحد، فإذا مات الإنسان الشرير فإن روحه يجوز أن تحل في كلب أكرمكم الله أو شجرة أو أي شيء موجود، وإذا لم تستطع الروح أن تتجرد تماما من الشهوات و الشر فلن

تستطيع أبدا أن تتحد مع "الكل"، والكل هو الإله كما أشرنا سابقا، وإن استطاعت الروح أن تتخلص من ذلك وتتحد مع "الكل" فتنجو من العذاب[13].

فقد "عاش الحلاج حياة مليئة بالجهاد الروحي والنضال الاجتماعي تلقى خرقة الصوفية في شبابه عن المتصوف المعروف عمرو المكي، ذاعت شهرته وأخباره، وراج أمره عند كثير من الناس، حتى وصلت للوزير المقتدر بالله الخليفة العباسي أ خبار كاذبة وهي ادعاء الحلاج للنبوة في عصره".[14] والحقيقة أن الحلاج صحيح كان يتكلم بكلام لم يوجه إلى أهل الاختصاص ولم يراعيه أهل الحكم، خاصة وأن الصوفية تعتمد على باطن الأشياء لا مظهرها الخارجي.

وقد انتقلت فكرة الحلول والاتحاد إلى بعض صوفية المسلمين، فسعوا إلى كبح شهواتهم ومجاهدة[15] أنفسهم وذلك كله من أجل الفناء[16] في الذات الإلهية، فالحلاج وابن عربي خير دليل ذلك،

نعود إلى قصيدتنا "ما في الجبة غير البحر" لقد قلنا سابقا أن عنوان القصيدة حمل الكثير من الدلالات الصوفية، خاصة و أن شاعرنا فاتح علاق قد تناص مع بن منصور الحلاج القائل"ما في الجبة إلا الله" وهو بهذا معنى يختصر لنا مذهبه في الحلول والاتحاد .

ويقصد بقوله "ما في الجبة غير الله" بوحدة وجود الله وحلول الروح فيها، يبدو أن توظيف شخصية حلاج وحضورها في شعر فاتح علاق، إنما هو إبداع منه لاستشعار البنية الصوفية و محاولة منه الهيام بالقارئ إلى عالم الباطن و كسر أفق توقعه، وهذا كله من أجل سبر أغوار الذات الإنسانية ومحاولة التخلص من آلام هذا العصر و كل الصراعات التي يتخبط فيها. فالحلاج رأى أنه لا يوجد في هذا العالم غير الله، وأما فاتح علاق فيرى أن البحر هو مصدر الحياة و نبعها، إلى أنه في باطن القصيدة و مضمونها

الخفي الذي يتجسد في محاولته للخلاص من واقعه، يدرك أنه لا خلاص إلى بالعودة لطريق الله سبحانه وتعالى.

وقد تنوّعت دلالات البحر في القصيدة، فمثلا من خلال هذه الأبيات يتحدث الشاعر عن بحر الشعر الذي يراه مقيدا للكثير من المبدعين، فهو يدعو إلى التحرر من جميع القيود التي تقيده عن قول الشعر وتفرض عليه بعض الأشياء التي تعطله عن إبداعه الأدبي ونحن نعلم أن الشاعر في شعره يحب التمرد لا القيد الذي يكبحه عن الإبداع فيقول:

لَسْتُ أَعْرِفُ غَيْرَكَ يَا أَيُّهَا البَحْرُ،

البَحْرُ ظلّي وطلّي

نَافِذَتِي أَنْتِ، قَافِيَتِي

و يقول أيضا :

هُوَ البَحْرُ بَحْرِي

وَأَنَا بَحْرُه.

والذِي يَعْرِف البَحْر يَعْرِفُنِي،

لَيْسَ فِي البَحْرِي غَيْرِي

أَنَا مَدَّه وَأَنَا جَزْرَه،

أَنَا شِعْرَه وَأَنَا نَثْرُه[17]

فمن خلال هذه الأبيات يظهر لنا توجه الشاعر ومذهبه في الحياة إضافة إلى تصوفه، حين جمع بينه وبين البحر وهذا ما يحيلنا مباشرة إلى فكرة الحلول والاتحاد التي استقاها من الحلاج كما أشرنا سابقا فالشاعر والبحر يشكلان وجها لعملة واحدة،

فحبه الشديد للبحر وتعلقه به إنما هو حب للخالق، وإذا أحب الإنسان الخالق، فحبه للمخلوقات سيكون أمرا طبيعيا، وبهذا يكون قد حقق الفناء في الذات الإلهية. حيث يقول:

لَيْسَ فِي البَحْرِ مَنْ أَحَدٍ

غَيْرَ جُبَتِه وَهَوَاه

فِي سَمَاءِ الإِلَهِ[18].

فالشاعر من خلال هذه الأبيات يرى أن الذات العلية متجلية في السماء، والإنسان لا يستطيع أن يبلغ الحقيقة المطلقة إلا إذا قام بكبت رغباته وكبحها وبالتالي يفيض قلبه بإلهام العارفين من ينبوع الجود الإلهي، وهناك يحدث الحب الإلهي بين الطرفين.

وإذا تأملنا القصيدة وجدناها تعج بألفاظ ومعاني صوفية كثيرة، حيث يأخذنا فاتح علاق في رحلة صوفية وعبر سفر سّلكه كأنه مريد ينتقل من مقام إلى مقام ليصل إلى الفناء في الذات العّلية وهو المبلغ الأسمى والأعلى الذي يريده كل صوفي، حيث يقول:

لِلْبِحَارِ حَدَائِقِهَا حِينَ تَصْعُد نَحْوَ السَمَاءِ

وَلِي بَهْجَتِي.

ويقول أيضا وهو يصارع الألم:

فَمَالَكَ تَلْطِمُنِي؟

ثُمَ تَخْرُسُ مَوْجِي

وَتَطْوِي مَدَاي[19].

وقد وظف الشاعر لفظة السالكين في قوله: "تفتح الباب للسالكين" ولفظة السالكين هي كلمة صوفية تعني الشخص الذي يمشي على المقامات بحاله لا بعلمه فكان العلم له عينا، ونجد كذلك لفظة السماء والبحر والقلب والفضاء والصلب والسكرات كلها ألفاظ إيحائية عبر بها فاتح علاق عن تجربته الذاتية برؤية صوفية عميقة وبقالب شعري صوفي جميل استطاع بحق أن يصور لنا رحلته مع البحر.

إن الشاعر من خلال القصيدة نلحظه يناجي الله ويدعوه نظرا لحالته وحالة بلاده المزرية من أجل أن يتغير حاله ويتخلص من أحزانه وآلامه والأبيات الآتية يصور لنا فيها معاناته:

حَرِرْ زَمَانِي مِنَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ

حَرِرْ مَكَانِي مَن الطُولِ وَالعَرْضَ

وَالبُعْدِ وَالقُرْبِ

حَرِرْ فُؤَادِي مِن الاسْمِ والرَسْمِ[20]

وقد كان للرمز الصوفي نصيب في القصيدة العلاقية حيث قال:

حَرِرْ فُؤَادِي مِن الاسْمِ والرَسْمِ

مِن سَكَرَاتِ الهَوَى وَاتَسَاعِ النَحِيب

وانثُرْ غُبَارِي.[21]

5. الرّمز الصّوفي:

يُعتبر الرّمز الصّوفي من أهمّ الخصائص الفنيّة التي ميّزت التّجربة الشّعرية المعاصرة منها أو قديمة، وقد استعمله الشّعراء كقناع للتّعبير عن مختلف الأفكار والتجارب التي عاشوها أو يعايشونها، ولعل الشاعر عندما عبر بكلمة"سكرات الهوى"

تجسد عنده رمز الخمرة المعروف عند الصوفيين، فحالة السكر عند الصوفيين لا يقصد بها السكر الحقيقي وإنما السكر عندهم هو الحب الصافي ـ العشق الإلهي ـ للذات العلية وانصهار فيها، لهذا جعله الصوفية رمزا للمريد وهو يتنقل من مقام إلى مقام آخر حتى يصل إلى أعلى المراتب.

فقد شكلت الخمريات بالنسبة للشاعر الصوفي المعاصر مادة خام، اتخذها رمزا لتبيين مآسيه وهمومه وقضاياه التي شغلت وقته وفكره، فهو غريق يصارع لجَجُ البحار وأغوارها باحثا عن بصيص الأمل الذي ينير طريقه، وعليه عد الرمز من أبرز الخصائص الشعرية التي ميزت الإبداع الشعري باعتبار لغته تجاوزت التقريرية التي أصبحت عاجزة عن توليد المعاني والأفكار، فالرمز هو المعادل الموضوعي الذي يمكن أن يستدل به الشاعر على تجربته الفنية هاته. "وهو مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانيها الشاعر والتي تمنح الأشياء مغزى خاصا وليس هناك شيء ما هو في ذاته أهم من أي شيء آخر بالنسبة للنفس وهي بؤرة التجربة"[22].

ولعل رمز الطبيعة كان متربعا على ديوان شاعرنا، وهو يصور لنا عناصر الطبيعة تارة يشكو لها وتارة يخاطبها وتارة يعاتبها، فالمكونات الحسية للطبيعة تنقسم إلى قسمان طبيعة حية متحركة كالبحار و الوديان وطبيعة أخرى صامدة كالجبال والصحراء، فالأولى فيها نوع من المجاهدة والتعب والثانية يرى فيها صمود وثبات وهو في تصويره دلك كأنه يتدرج في سلم العابرين والسالكين للوصول لدرجات المقام والحال.

وفي هدا يقول:

يَأ أَيُها البَحْرُ مَادا دَهَاك؟

كَسَرْتُكَ التِي كَسَرتْني يأصَاحِبي

فَحَاصِرْ هَوَاك

دُمُوعك فِي وَجنَتَي

وَدِماؤُكَ فَي جَسَدِي[23]

ويقول :

تَسْحَبُنَي نَحْوَ مَوْتِي

يَهْرُب التِلُ والشَجَرُ

تَسْحَبث الشَمْسَ ظلي

وَ يَهْوِي عَلَى هَامَتِي القَمَر[24]

فاتخاذه للرمز الطبيعة وإسقاطه على تجربته الشعرية، إنما هو إبداع في حد ذاته، فالأشياء الحية هي روح وروح الله لا تفنى، أما الصمود من الجمادات وهو مصيرنا ومصير الإنسان التراب...

ولعل رمز الرحلة هو الآخر بدا واضحا في مختلف قصائد الشاعر، فالسفر في أشعار صوفية نلمسه ونحسه فيهم، فرحلة العابر أو السالك هي سفر يتدرج فيه بين المقامات والأحوال للوصول إلى طريق الحق وطريق الخلاص، والوصول إلى هده الدرجة يقتضي تطهير النفس من الشهوات والملذات، وترويض النفس على حب الله وتقواه ومجاهدة الأهواء، إنه طريق يتطلب الصبر وكبح كل ما تتطلبه الحياة المادية "وكأنها تقد ما علق به هناك، وتصفي كثافة المكان المهجور، وتستهدف إذابة آثاره، وإتلاف حضوره داخل هدا الكيان الذي تدفع به في متاهات تقربه مزيدا من العناء والمكابدة"[25].

وفي هدا يقول الشاعر:

حَاصِرْ دُمُوعكَ بِالحَجَرِ

حَتَى تَعُودُ إِلَيْكَ الطَرِيقُ

وَتَفِي إِلَيْكَ السَكينَة

يَلْتقي الرُوح بالوَقْت

يلتَقي الَدَرْبَ بالروح[26].

فهنا الشاعر يصور لنا تلك المرحلة التي مر بها وهو يصارع الأهواء، فالرحلة رمز للحقيقة المطلقة التي يسعى لها المريد وكل إنسان أراد كسب رضا الله، والوصول إلى حقيقة الحب الإلهي وتجاوز أطر هدا العالم الزائف.

إن هدا التلاعب والتمازج بين تجربة الأداء وتجربة الغور عبر سلك هدا السلم المليء بالمجاهدات يكشف لنا عن عمق التجربة الصوفية بلغتها وبمفاهيمها السامية التي تتميز" برشاقة اللغة وعمق الدلالات ورمزية الخطاب"[27].

ومن هدا المنطلق أُعتبر الرمز الصوفي خاصية فنية انفلت بها الشاعر من عالم المحسوسات إلى عالم الخلاص والوجدان وتجاوز كل أطر ما هو عادي.

6.خاتمة:

إن المتتبّع لمسيرة الشّعر الجزائري يدرك جمالية الكتابة الصّوفية وأثرها على الشّاعر من حيث جزالة كلمه وقوة النّص الشّعري وهدا ما لمسناه في قصيدة الشّاعر الجزائري فاتح علاق من خلال قصيدته التي ذكرناها سابقا وعلى هدا يمكن لنا القول:

*أن الشّعري الجزائري المعاصر حظي بصبغة فنية رائعة ظهرت من خلال امتزاج التجربتين الشعرية والصوفية مع بعضهما البعض وبالتالي تنوع في معاني القصيدة الجزائرية المعاصرة.

* لقد نجح الشاعر فاتح علاق في استدعائه لشخصية الحلاج، وقد استطاع أن يتلاعب بألفاظ القصيدة حين تناص مع الحلاج من خلال قوله "ما في الجبة غير الله" وقول

فاتح علاق "ما في الجبة غير البحر" محاولا من خلال ذلك عدم كشفه لمعاني القصيدة حتى يتسنى للقارئ الغوص في متاهات التصوف .

* وأما لغته فتزاوجت بين اللغة الشعرية واللغة الصوفية في قالب شعري صوفي جميل، تخطى بها جميع الأشياء والحوادث الظاهرة موقضا فينا الخفي والمجهول أملا في الوصول إلى الأسرار الخفية في هذا الكون. وبذلك يكون قد استثمرها في تحقيق القيم الفنية والجمالية التي تتراءى من خلال لغته الإبداعية والفنية .

* وبهذا يكون قد فعّل آليات المتخيل الصوفي ضمن نصه الشعري الذي تخطى به كل ما هو ظاهري محسوس إلى عالم الإشراق والفيوضات الروحية وإيقاعات اللانهائي والعرفان الروحي مبحرا عبر رحلاته الخيالية إلى ذلك العالم كي يتجاوز محنة الإنسان و أزماته سواء السياسية أو الاجتماعية منها.

*وعليه يمكن القول أن فاتح علاق قد أضاف للقصيدة الشّعرية الجزائرية لونا فنيا جديدا أسس لميلاد تجربة أدبية فريدة من نوعها و بالتالي ثراء لمكتبتنا الأدبية.

*** *** ***

5. الهوامش:

---

[1]سعيد بوسقطة، الرمز الصوفي في الشعر العربي المعاصر، منشورات بونة للبحوث والدراسات، ط2، الجزائر، 2008م/1429هـ، ص10.

[2] الموسوعة العربية، معهد الإنماء العربي اللبناني، مج1، ط1، بيروت، 1986، ص 259/258.

[3] زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ، ص383.

[4] أمنة بلعلى، تحليل الخطاب الصوفي، منشورات الاختلاف، 2002، ص22/21.

[5] أدونيس، الصوفية و السوريالية، دار الساقي، ط1، بيروت، 1992، ص23.

[6] المرجع نفسه، ص 23.

[7] عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1988، ص348.

[8] فاتح علاق شاعر وأستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر، حاصل على شهادة الماجستير في الأدب العربي من حلب وعلى شهادة الدكتوراه من جامعة الجزائر، وله العديد الدراسات أدبية ونقدية.

[9] فاتح علاق، ديوان ما في الجبة غير البحر، دار التنوير، ط1، الجزائر، 2017، ص10.

[10] ضياء مجيد الموسوي، غاية التصوف وأدوات المتصوف، كنوز الحكمة، د/ط، الجزائر، 2011، ص118.

[11] المرجع نفسه، ص 118.

[12] الحلول والاتحاد: تعود فكرة وحدة الوجود إلى قصة الخلق القديمة عند البراهمة الهندوس، إذ تقول أن الأرواح الكامنة في أبدان البشر انبعثت كلها من أصل إلهي واتحدت بالمادة الترابية لتهبها الحياة، وظهرت هذه الفكرة عند الفراعنة والمسيحية و بعض المفكرين المسلمين في صورة التجسد الإلهي، وقد أخذ بها جماعة من صوفية المسلمين الذين نادوا بوحدة الوجود وهي نظرية تقول بأن الله ومخلوقاته كل واحد.

[13] ينظر، ضياء مجيد الموسوي، غاية التصوف وأدوات المتصوف، ص 112.

[14] ابن خلكان، وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار صادر، بيروت، ص140.

[15] المجاهدة هي مصطلح صوفي يعني تحميل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال.

[16] الفناء يعني سقوط الأوصاف المذمومة، والفناء فناءان أحدهما ما ذكر، وهو بكثرة الرياضة، والثاني عدم الإحساس بعالم الملك ومشاهدة الحق.

[17] فاتح علاق، ديوان ما في الجبة غير البحر، ص20.

[18] المصدر نفسه، ص17.

[19] المصدر نفسه، ص22.

[20] نفسه، ص24.

[21] نفسه، ص24.

[22] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، دار العودة، بيروت، ط3، 1981، ص198.

فاتح علاق، ديوان ما في الجبة غير البحر، ص26.[23]

المصدر نفسه، ص 28[24]

وفيق سليطين، الزمن الأبدي، دار نون للدراسات والنشر، سوريا، ص 1997، ص 189.[25]

فاتح علاق، ديوان ما في الجبة غير البحر، 51.[26]

[27] محمد بن عمارة، الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، المغرب، 2001، ص139.